قصّة "الوردة الحمراء"

دراسة وتحليل

عبد العالي بشير

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

مقدّمة منهجيّة

الوردة الحمراء هو عنوان لقصة، تقع ضمن مجموعة قصصية شعبية حملت العنوان نفسه، وتضم هذه المجموعة قصص أخرى هي على النحو الآتي :

الأربعون غولا -الحمامة الحورية- لنجة ابنة الغول -الفراشة- سالم وطمطام -زنيبر- علي ابن الثعبان -تونسية- الرجل العجوز والغول.

وقد جمع رابح بلعمري هذه القصص وأعاد صياغتها بلغة فصيحة، ثم ضمها في كتاب واحد جعله بين يدي القراء والدارسين.

وقد اخترت من هذا الكتاب قصة "الوردة الحمراء" لدراستها وتحليلها، انطلاقا من المحطات النصية الآتية :

1. التّصنيف

مبدئيا يمكن تصنيف النص الذي نحن بصدد دراسته ضمن القصة أو الحكاية الشعبية والتي هي "إحدى المرايا الصادقة للإبداع الشعبي في مختلف الأقطار والعصور، تصور الطموح إلى الخير، والأخوة، والحب، والفضيلة، والحق، والعدل، والمساواة، كما تصور الطموح الشفاف إلى التكافؤ في الحب والزواج، والتوفيق في المغامرة الشريفة، ذات الأهداف النبيلة،

وتدين من خلالها الأدعياء والوصوليين ... لتنتهي في الأخير إلى مباركة الخطوات الناجحة خاصة لذوي الأغراض النبيلة، فتهلل للحب والوفاء والعدل والأخوة ، والمحبة والسّلام ".[1]

فالحكاية الشعبية تحمل في جوهرها جملة من القيم، قد تكون دينية ثقافية أو سياسية، وحتى فكرية، وقد يشترك في بناء الحكاية عدة عناصر: الإنسان، الحيوان، الطبيعة، الجن وغيرها من الموجودات ذات الأجناس المختلفة، وتتدخل الخوارق والأعاجيب لتضفي على الحكاية جوا سحريا، ينقلنا من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال الواسع.

هذا إلى جانب أنها ترجمة لصراع النفس الداخلي الدائم، والمحتدم بين مشاعر الخير والشر، الحب والكره، ألم الإنسان وصبره على تحمل المشاق والمهالك في سبيل تحقيق غايته. ولا يمكن تجاهل الدور الذي تلعبه الحكاية الشعبية في المجتمع الذي أنتجها "ذلك أنها تعمل على تنظيم العلاقات بين الجماعة وتعمل على تماسكها ".[2]

2. تقديم القصّة

تحكي قصة "الوردة الحمراء" حكاية أب تقي عزم ذات يوم على أداء فريضة الحج، وكان لهذا الأب سبع بنات يحبهن حبا عادلا، وقبل سفره قطع سبعة أغصان من شجرة ورد ووزعها على بناته وقال لهنّ :

(يا بناتي الحبيبات، إنني ذاهب إلى مكة لكي أطهر نفسي، سيكون غيابي طويلا، وربما لا تفكرن بي وأنا بعيد عنكن. خذن هذه الأغصان ولتغرس كل واحدة منكن غصنها تحت نافذتها بعد سفري، فإن التي تحبني حقا سيزهر غصنها بسرعة. أما التي لا تحبني فمهما اعتنت بغصنها، فستراه ييبس ويموت، وهكذا بعد عودتي، سأعرف من حزنت على غيابي ومن نسيتني)[3].

وعندما سافر الأب غرست كل واحدة غصنها تحت نافذتها، فيبست كل الأغصان، باستثناء غصن الأخت الصغرى، الذي برعم وأعطى وردة حمراء جميلة، مما جعل الأخوات الست يضطربن خوفا.

بدأت الأخوات يفكرن في طريقة تجعل الأب لا يفكر في شيء عن شعورهن إزائه، فاهتدين -باقتراح من الأخت الكبيرة- إلى فكرة قتل الأخت الصغيرة وإتلاف وردتها. وافقن كلهن على هذا المشروع بحماس، ما عدا الأخت التي قبل الصغرى، والتي حاولت بكل ما تملك، إعادة أخواتها إلى طريق الصواب، لكنها فشلت مع الأسف.

وأثناء الليل ذبحت الأخت وأتلفت وردتها الحمراء، فحزنت عليها أختها، وبكتها بدموع واجفة، ثم ذهبت إلى قبرها خفية وأخرجتها من القبر، ونزعت عنها جلدها، وجففته قبل أن تلفه بوشاح من الحرير، لتحفظه في صندوقها الخاص.

وبعد عودة الأب من السفر، سأل عن ابنته الصغرى التي لم يشاهدها. فردت الأخت الكبرى عن سؤاله قائلة : "يا أبي، إن أختنا موجودة تحت التراب. إن الغيرة أدت بها إلى الهلاك، لأن غصنها لم يزهر على غرار أغصاننا التي أعطت ورودا حمراء جميلة وكان بإمكانك أن تراها بعينك لولا أن أختنا لم تتلفها خفية عنا وهي غاضبة غضبا شديدا "[4].

اقتنع الأب بكلام الأخت الكبيرة وقال : "لن أذرف دمعة واحدة على قبر البنت العاقة، ولو لم تمت، لكنت طردتها من بيتي"[5].

وبعد مرور أيام حضر "البوسعدية" أمام بيت الأب حاملا طبله، وشرع يغني ويرقص، ويدق الطبل بقوة إلى أن ثقب جلده، ذهل لهذا الحادث، ورفع عينيه إلى السماء وصرخ بصوت متوسل : "يا إلهي ! ماذا سأفعل لربح قوت أبنائي، فأنا لا أتقن حرفة، ولا أعرف شيئا، أين أجد جلدًا لتبديله يا ترى؟"[6].

وفي خضم حيرة وقلق "البوسعدية" تتدخل الأخت السادسة، فتمنحه الجلد الذي كانت قد احتفظت به في صندوقها، فيصلح طبله، ويشرع فورا في الغناء والرقص. وأثناء ذلك تطلب منه البنات الست، أن يعيرهن طبله الجميل. فيوافق على ذلك ويسلمه في بداية الأمر إلى الأخت الكبيرة، لكنها ما أن لمسته بأصابعها حتى نطق الجلد قائلا : "لا تلمسيني. يا حسودة. أنت التي قررت موتي لأن غصني قد نما وأزهر وردة حمراء جميلة ".

لم يصدق الأب ما سمعته أذناه، أخذ الطبل وقدمه للبنت الثانية، ومن جديد سمع صوت المرحومة يقول : "لا تلمسيني يا خائنة ..." .

ثم أعطى الأب الطبل للثالثة فقال : "لا تلمسيني يا متملقة ...".

ثم أعطاه للبنت الرابعة فقال الصوت : "لا تلمسيني يا حقودة ...".

ثم أعطاه للبنت الخامسة فقال الصوت : " لا تلمسيني إن قلبك من حجر...".

ولكن عندما تناولته الأخت السادسة، أصبح الصوت لينا جدا وقال : "إلمسيني يا أختي بأصابعك الحريرية، وسأعزف لك ألحانا رخيمة، لم تسمعي مثلها قط على وجه الأرض، لأنك دافعت عني، وبكيت عليّ كأخت حبيبة "[7]. عندئذ أدرك الأب حقيقة ما جرى أثناء غيابه، فقرّر احتجاز البنات الخمس في غرفة وذبحهن جميعا.

3. المسار السّرديّ في الوضعيتين، الافتتاحية والختامية

تقدم الوضعية الافتتاحية في قصة "الوردة الحمراء" الحالة الاجتماعية للأب، فهو متزوج، وله سبع بنات، متديّن تقيّ، قرر أن يحج ليطهر نفسه، ولكن قبل سفره قطع أغصانا من شجرة ورد ووزعها على بناته، وطلب منهن أن تغرس كل واحدة غصنها تحت نافذتها، والتي تحبه هي التي سيزهر غصنها بسرعة، ليعرف بعد عودته من حزنت عليه ومن نسيته.

نفّذت البنات وصية الأب، فيبست كل الأغصان، باستثناء غصن الأخت الصغيرة الذي أينع وأعطى وردة حمراء. وتنتهي الوضعية الافتتاحية بذبح الأخت الصغيرة ودفنها وإتلاف وردتها.

كما بين لنا الراوي من خلال الوضعية الافتتاحية أيضا طبيعة العلاقة بين الأخوات التي كانت تبدو مستقرة نسبيا، غير أنها تحمل في طياتها عامل الاضطراب، الناجم عن خوف الأخوات الست من الأب، واكتشافه للحقيقة -قتل البنت الوحيدة التي كانت تحبه-.

وتبدأ الوضعية النهائية من عودة الأب من الحج، وإدراكه لحقيقة ما جرى أثناء غيابه، واتخاذه قرار حجز البنات الخمس في غرفة وذبحهن جميعا.

هكذا قدمت الوضعيتان برنامجين سرديين في البداية كانت البنات السبع في وصلة مع الأب لأنه كان يحبهن حبا عادلا، أما في الوضعية الختامية فقد انقلب الموقف وشاهدنا كيف أن الأب أصبح في فصلة مع بناته الخمس، لاسيما بعد اكتشافه للحقيقة والمتمثلة في قتل البنات الخمس للأخت الصغيرة وإتلاف وردتها.

4. الشّخصيات

يقول فليب هامون في تحديد مفهوم الشخصية المجازية : "تتميز كل شخصية في أي نص سردي بصفات وملامح جسدية ومعنوية يستطيع القارئ اكتشاف الصفات الأولى بسهولة، لأن السارد يعتمد فيها على التصوير الخارجي القائم على الملاحظة، أما الصفات المعنوية فإنه لا يتسنى للقارئ اكتشافها إلاّ من خلال أفعالها وأقوالها، وفي هذه الحالة تقوم الشخصية بإنجاز أفعال أو التعبير عن رغبة، أو التظاهر بأمر ما وهي تبطن أمرا آخر، ويترتب عن كل ذلك انبثاق الشخصية وعلاميتها"[8]. ومن الشخصيات المجازية الموظفة في نص القصة، شخصية الأخت الكبرى، التي كانت تبطن العداوة والبغضاء للأخت الصغرى،

وهي التي اقترحت على أخواتها فكرة ذبحها وإتلاف وردتها الحمراء، ولكن عندما عاد الأب من الحج، وسأل عن ابنته الصغرى التي لم يشاهدها تظاهرت بالحزن وأجابت قائلة : "يا أبي، إن أختنا موجودة تحت التراب ... إن الغيرة أدت بها إلى الهلاك، لأن غصنها لم يزهر على غرار أغصاننا التي أعطت ورودا حمراء جميلة، وكان بإمكانك أن تراها بعينك لولا أن أختنا لم تتلفها خفية عنك وهي غاضبة غضبا شديدا". [9]

وتقوم الشخصية من خلال دال متواصل، أي مجموعة لا متناثرة من الامتيازات نسميها بطاقة دلالية، وهي تخضع بصفة عامة لاختيارات الكاتب الجمالية[10]. تأكيدا لهذا التوجه النظري سنسعى إلى ضبط البطاقة الدلالية لشخصيات القصة، معتمدين في ذلك على الحقول المعجمية.

الشّخصيّة	المقطع السّرديّ	البطاقة الدّلاليّة
الأب	أب لسبع بنات، وكان يحبّهنّ حبّا عادلا. ص، 21. أمّا انتنّ بما أنكنّ قد قتلتنّ الابنة الوحيدة التي كانت تحبّني فأقتلكنّ. ص، 26.	الحبّ الحقد والكراهيّة
البنت الكبرى	لا تلمسيني يا حسودة، أنت التي قرّرت موتي لأنّ غصني قد نما وأزهر وردة حمراء. ص، 25.	الحسد
البنت الثّانية	لا تلمسيني يا خائنة، لأنك أنت التي ذبحتني عندما كنت غارقة في التوم. ص، 25.	الخيانة

البنت الثالثة	لا تلمسيني يا متملّقة، لأنك أنت التي شحذت السّكّين الذي ذبحتني به. ص، 25.	التملّق
البنت الرّابعة	لا تلمسيني يا حقودة، لأنك أنت التي حطّمتي وردتي. ص، 25.	الحسد
البنت الخامسة	لا تلمسيني إنّ قلبك من حجر، كنت تضحكين عندما ذبحت.	القسوة
البنت السّادسة	إلمسيني يا أختي بأصابعك الحريريّة ... لأنك دافعت عنّي وبكيت عليّ كأخت حبيبة. ص، 26.	الحنان/ الحبّ
البنت الصّغرى	يبست كلّ الأغصان وأصبحت سوداء فاحمة، باستثناء غصن الأخت الصّغرى الذي ما لبث أن برعم وأعطى وردة حمراء جميلة. ص، 21.	الحبّ/ الطّهر/ البراءة

إن المتأمل في هذه المقاطع السردية يلاحظ أن الغيرة هي التي دفعت الأخوات الخمس إلى التفكير في قتل الأخت الصغيرة. كما نلاحظ أيضا أن كل واحدة منهن قد ساهمت في الجريمة، سواء أكانت هذه المساهمة مادية أم معنوية، فمثلا الأخت الكبيرة هي التي اقترحت على أخواتها فكرة القتل، وقد شحذت الأخت الثالثة السكين، بينما جسدت الأخت الثانية الفكرة، واكتفت البنت الرابعة بتحطيم الوردة. وكانت الأخت الخامسة منهمكة في الضحك أثناء تنفيذ عملية الذبح، أما الأخت السادسة فهي الوحيدة التي حاولت أن تعيد أخواتها إلى طريق الصواب ولكنها فشلت مع الأسف.

5. الزّمان

يمكن تلخيص المسار الغرضي للقصة تبعا للتسلسل الزمني التالي[11]:

حب / استقرار	غيرة / اضطراب	كره / انتقام
الماقبل	الأثناء	المابعد

وقد اتسمت المرحلة الأولى باستقرار الأسرة، وبحب الأب لجميع بناته، بينما تميزت المرحلة الثانية بالغيرة، لا سيما بعدما يبست أغصان الأخوات الست باستثناء غصن الأخت الصغرى، مما جعلهن يضطربن خوفا من الأب بعد عودته من الحج. وقد اتصفت المرحلة الثالثة والأخيرة بكره الأب للبنات الخمس خاصة بعد اكتشافه حقيقة ما جرى أثناء غيابه.

6. الفضاء

يعد الفضاء عنصرا مركزيا في تشكيل أي نص سردي، وهو محل تبئير لجمل وقائع القصة، ولحركات الشخصيات وأفعالها وأهوائها ونوازعها وعواطفها وأمالها وآلامها. وقد تحركت شخوص قصة " الوردة الحمراء" في أفضية مركزية هي :

6. 1. مكّة المكرّمة

وهو المكان الذي عزم الأب على زيارته لأداء فريضة الحج، وتطهير نفسه.

6. 2. البيت

لم يرد فضاء البيت صراحة في نص القصة، وإنما اكتفى السارد بالإشارة إلى بعض العناصر التي تدخل في تشكيله، كالنافذة التي غرست كل واحدة من الأخوات غصنها تحتها، والغرفة التي حجز فيها الأب البنات لذبحهن.

6. 3. القبر

لم يعد يدل في النص على الحفرة التي يوارى فيها الإنسان بعد موته، وإنما أصبح يرمز إلى الحيز الذي تدفن فيه الغيرة والحقد، وتحجب فيه الحقيقة عن الأب.

ولا يمكن للفضاء أن يرد بدون وصف، لأن هذا الأخير هو الذي يجعل الفضاء يتبوء مكانة سردية بين العناصر السردية الأخرى، ولكن الشيء الملفت للانتباه أن الراوي لم يعتن بوصف الأفضية الموظفة في النص، وإنما اكتفى برسم بعض المعالم التي تعين القارئ على اكتشافها.

7. الجانب العجائبي في الحكاية

تحمل كلمة (عجيب) في القواميس العربية القديمة معنى الاندهاش والحيرة، أمام الشيء غير المألوف والمعتاد، ولذلك يواجه العجيب لأول وهلة بالإنكار لندرته وغرابته، فيتولد في الذات شعور بالتعجب بسبب جهل الأسباب والعلل. فالعجيب مرتبط بمظهر ما، وعندما ندرك الأسباب ويصبح المجهول معلوما يسقط العجب. وإذا ما انتقلنا إلى القواميس الأجنبية فإننا نعثر على التعاريف الآتية :

" ما يبهر إلى أقصى حد، أو هو ما لا يقبل التفسير بشكل طبيعي، ويعني عالم ما فوق الطبيعي" [12].

" العجيب هو ما يثير الدهشة بخصائصه الخارقة والنادرة، وما يبدو معجزا وفوق-طبيعي ، أو هو ما يبتعد عن المسار العادي للأشياء ".[13]

ومن الطبيعي أن يكون عالم العجيب مأهولا بالخوارق والجن (Les génies) والتحولات (Les metamorphoses) والطلاسم (Les talismans) والأدوات العجيبة مثل العصا السحرية والخاتم السحري، والبساط الطائر.

انطلاقا من هذه الطروحات النظرية نحاول الآن فحص بعض مظاهر العجيب في نص " الوردة الحمراء " فقد استعان الراوي بظاهرة التحولات التي أفضت على النص صفة العجائبية. إذ تحول جلد البنت الصغرى -الذي نزعته الأخت ما قبل الصغرى من حيث العمر وجففته واحتفظت به في الصندوق ثم سلمته إلى "البوسعدية" بعدما ثقب جلد طبله- إلى صوت مؤنب لباقي الأخوات. (لا تلمسيني يا حسودة، خائنة، متملقة، حقودة، قاسية) وصوت رحيم ولين مع الأخت السادسة. (إلمسيني يا أختي بأصابعك الحريرية وسأعزف لك ألحانا رخيمة لأنك دافعت عني، وبكيت علي كأخت حبيبة).

فظاهرة تحول جلد الأخت إلى صوت لا تقبل التفسير الطبيعي أو المنطقي، لأنها تبتعد عن المسار العادي للأشياء. بمعنى أننا لا يمكن تفسير هذه الظاهرة علميا لأنها لا تخضع للأسباب والعلل العلمية. فمن المعروف والثابت علميا أن الإنسان عندما يموت ويدفن يتحلل جسده بما في ذلك جلده. ولكن الحكاية الشعبية لا تخضع في بنائها للعقل وللمنطق الصارم، ولا إلى القوانين العلمية.

وهكذا فإن الخطاب العجيب الذي هو من ابتداع المخيلة لا يعبر فقط عن غرابة مقلقة تمتطي المفارقة والتناقض وهتك الواقع العقلي، بما هو خارج عن حدود الطبيعة، وإنما هو يسعى أساسا إلى التعبير عن رغبات الإنسان الساذجة، ويتوق إلى كشف أسرار الغيب والسيطرة على الكون والهروب من الموت والشيخوخة[14]. وللعجيب وظيفة تتمثل في ترويض الزمن وضمان الخلود والأمل للأفراد والمجتمع[15].

القيم : اشتمل النص على مجموعة من القيم يمكن إجمالها في الآتي :

- **القيم الخلقية :** وتتمثل في حب الأب لكل بناته حبا عادلا، وفي غيرة الأخوات وحقدهن على الأخت الصغرى.
- **القيمة الدينية :** وتجسدت في ورع الأب وتقواه.
- **القيمة الاجتماعية :** وتظهر في معاقبة كل مجرم بقدر ما اقترف من ذنب.

الإحالات

*- رابح بلعمري، *الوردة الحمراء*، قصص شعبية من شرق الجزائر، المنشورات الجامعية والعلمية، باريس، 1983، ص، 21.

1- عبد الحميد بورايو، *البطل الملحمي والبطل الضحية في الأدب الشعبي الجزائري*، دراسات حول خطاب المرويات الشفوية، الأداء، الشكل، الدلالة، ديوان المطبوعات الجامعية، ص، 18.

2- عمر بن قينة، *قصص شعبية من الجزائر*، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص، 21.

3- رابح بلعمري ، *الوردة الحمراء*، قصص شعبية من شرق الجزائر ، ص، 21.

4- نفسه، ص، 22، 23.

5- نفسه، ص، 23.

6- نفسه، ص، 23.

7- نفسه، ص، 24.

8- Philipe hamon, *Pour un statut sémiologique du personnage*, in poétique du récit, seuil, paris, p 61.

9- *الوردة الحمراء*، ص، 22. 23.

10- محمد سويرتي، *النقد البنيوي والنص الروائي*، الدار الحمراء، المغرب، 1991، ص 70.

11- عبد الحميد بورايو، *التحليل السيميائي للخطاب السردي*، منشورات مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران ، الجزائر، 2003، ص، 81.

12- *Dictionnaire le petit robert*, Paris , 1978, p 1186

13- *Le petit Larousse*, Paris, 1995, p 649.

14- الطاهر المناعي، *العجيب والعجاب*، ص، 70.

15- Durand Gilbert, *Les structures anthropologiques de l'imaginaire*, ed, Bordas, Paris, 10 ed, 1984, p. 70.